الشعراء المحدثون

عصر الانحطاط

ميزة الشعر

ضعفه . خمود القرائح عن الابتكار . انحداره في عصر العثمانيين . التكلف . التقليد . صناعة لفظية جافة . التاريخ الشعري . اغراضه كاغراض الشعر المولد . اقبال الشعراء على التصوف والمجون .

بان الضعف على الشعر في العصر العباسي الرابع، وتلقاه عصر الانحطاط بكوارثه ومجازره، وبوابل منهمر من العناصر الاعجمية لا تأتلي في افساد اللغة، وتشويه فصاحتها . فانحدر الشعر الى ادنى الدركات، وكان له بعض الرونق في اوائل العصر، فجف ماؤه، وخبث طعمه في اواخره .

وطبيعي ان يسقط الشعر ويهوي من سمائه، وقد تواضعت على أذاته عوامل متعددة . فمن فصاحة آضت الى العجمة والرطانة، ومن قرائح ارمضها الشح والجفاف، ومن اذهان اخلقها الخمول والجمود، ومن نفوس اضرعها الرعب والخنوع ، ومن ملوك ازرت بالشعر والشعراء .

وكان المماليك ارحب صدراً من العثمانيين لاستقبال الشعراء . ذلك بان مملكتهم عربية الموطن، فقربوهم اليهم ، ولكنهم صرفوهم الى التأليف في الاداب والعلوم، وآثروا على شعرهم اناشيد الزجالين، لان عجزهم عن فهم العربية الفصحى حبب اليهم الزجل . فانابوا اصحابه، فكثر القول فيه، ونظمت الموشحات والقصائد العامية على انواعها .

ومع قلة المناصرين للشعر، فان المشتغلين به لم يقلوا، بل كان منهم طائفة كبيرة معظمها شويعرون ومتشاعرون . ذلك ان الناس استهانوا جانب الشعر بعد ذهاب اربابه، واجترؤوا على نظمه دون ان يُؤتوا مواهبه، فتلهى به الخاصة، ولاكته افواه العامة، فكان من اصحابه الفقهاء والكتاب واهل الحرف وسواهم .

وكان التكلف والتقليد اظهر خصائص هذا الشعر، لان الجمود الذي استولى على القرائح قطع ما بينها وبين الابتكار، ووقف بالشعراء عند اساليب المتقدمين ومعانيهم، يطبعون على غرارها، ويغرفون من بحارها . فقلما وقعت على معنى شريف او صورة خلابة الا وجدت له اصلاً في شعر السالفين . فكانوا كالحيوان الطفيلي يعيشون على جسم غيرهم . وترك لهم الادباء العباسيون ارثاً عظيماً من الصناعة المعنوية واللفظية، فاقبلوا عليها يحترفونها، لانها لا تفسرهم على الاستنباط والاختراع، وانما تحتاج الى عناية باختيار الالفاظ المتجانسة، والتصرف في استخدام معانيها ليستخرج منها تورية او جناس، او ما شاكل ذلك من انواع البديع . والصناعة في الشعر جميلة اذا روعيت فيها البلاغة، ولم يفرط في استعمالها، واعطي المعنى حقه من الشرف والصدارة . ولكن شعراء الانحطاط ألحوا في طلبها حتى اسرفوا، وجعلوا المعاني خادمة للالفاظ، فصغر امرها، وقبح منظرها، وغث مخبرها . ولم يكن لهم ما كان لاسلافهم من البلاغة وحسن البيان، فاضطربت عباراتهم، وتراخى رشاؤها، وجف ماؤها، وتثاقل أداؤها . وازدادت لغتهم ضعفاً وركاكة بازدياد انحطاطهم، حتى صار الشعر في غاية الاسفاف، وبات الشعراء يتلمسون الصناعة ليستتروا بها، فتنشز عنهم، وما تؤاتيهم الا بعد لأي، ولا هم يبلغونها الا بشق النفس، فاذا هي بين ايديهم غثة باردة، كلها معاظلة وحشو وتطويل . واذا الشعر جثة ميت لا حياة فيه .

واكثروا من التخميس والتشطير والتضمين والاقتباس، لما فيه من معان مستفادة يتوسع فيها ناظمها، ويغذي بها بنات افكاره الجائعة . ثم جاءهم التاريخ الشعري مع العثمانيين في القرن العاشر للهجرة، فكان لهم من ارقامه رياضة لاذهانهم الكليلة، فتهافتوا عليه تهافت العطاش على الماء، وراحوا يتنافسون في استعماله كلما سنحت لهم

تهنئة او تعزية، فزيدت صناعة الشعر برودة وثقلاً، واصبحت بغيضة لا تطاق بعد ان افرطوا فيه حتى جعلوا القصيدة جدولاً حسابياً، في كل مصراع تاريخ او اكثر . ويا قبح الله الشعر اذا خالطه الحساب .

واما اغراض الشعر فلم تخرج في جملتها عن اغراض المولدين، الا ان هناك نوعين متناقضين تضاعف اقبال الشعراء عليهما، وهما التصوف والمجون . ومن غريب ظواهر الاجتماع ان يكثر التعبد والفحش عند اشتداد الحروب والمحن . فبينما تنصرف طائفة الى التنسك والصلاة ليجلو الله غمائم الكروب، تمعن اخرى في طلب الملذات كمن يبادر الدنيا قبل فواتها . وكثيراً ما يقود اليأس صاحبه الى المعرّات، على امل ان يتفرج من همومه . ولضيق الحروب، وما يتبعه من فاقة وفقر، وبذل، وسبي واغراء، يد فعالة في قتل الحياء وبعث الدعارة .

وقد كان عصر الانحطاط متتابع الويلات والحروب، ففزع الناس الى ربهم يعتصمون بحبله، ففزع اليه الشعراء يمدحونه، ويستشفعون رسوله . فنظم البُوصيري بردته الشهيرة، وترسمه الحِلّي في بديعيته، جارياً على بحره وقافيته . ففتح طريقاً جديداً لمن جاء بعده من الشعراء، فاحتذوا على مثاله، والتزموا انواع البديع في مدائح محمد وآله وصحبه . وتشبه بهم ادباء النصارى ونظموا القصائد والبديعيات في مدح المسيح ورسله، اشهرهم المطران جرمانوس فرحات، والخوري نيقولاوس الصائغ صاحب اول بديعية نصرانية .

وكان عصر الانحطاط عصر يأس وضيق، وسبي واغراء، فاوغل الناس في ارتكاب الفحشاء، ومزقوا عن جسومهم غلائل العفاف، فاوغل الشعراء في الخلاعة والمجون، واسرفوا في سرد الاخبار الفاحشة، واستعمال الالفاظ الصريحة في البذاءة . وراج عندهم غزل المذكر، ولم يتحوب منه العلماء والمتصوفون . وكان مجونهم في معظمه سمجاً غليظاً لكراهيته ونبوّه عن الطبع، وخلوه من الظرافة التي اتسم بها شعر النواسي واضرابه من مجان العصر العباسي الاول . وربما تكلفوا نظمه لئلا ينقصهم

فن من فنون القريض، وسموا هذا الضرب من الشعر إحماضاً[1]. وكان صفي الدين في مقدمة من تكلف نظمه وتدوينه. ومع كثرة شعراء الانحطاط تطفل الناظمين، فانه لا يستحق الذكر الا اقلهم. وابرعهم من جاء في صدر العصر كالبُوصيري، وابن نُباتة، وصفيّ الدين الحِلي، والتِّلِمْسَانِيّ، والشاب الظريف.

---

(١) الاحماض، من أحمضت الابل: أكلت الحَمْض. وهو ما ملح وأمرّ من النبات، وهو كفاكهة للإبل تأكله عند سآمتها من الخُلَّة وهي ما حلا من النبات. واستعمل الاحماض مجازاً للتفكه بالعبث والمجون.